

وجوه التأثير بالتراث العربي الإسلامي في أدب الهوسا

أعمال الحاج أبي بكر إمام القصصية أنموذجاً

أ.م.د. رحمة بنت أحمد الحاج عثمان

وعبد الكريم عيسى الصارم

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

خلاصة

تنظر هذه الدراسة في انتقال الأجناس الأدبية والفنية من حضارة إلى أخرى، في طابع عالمي رغم خصوصيتها المحلية والقومية، والمراحل التي مرت بها قصة الهوسا من سذاجة الإعجاب والتقليد والمحاكاة إلى الإبداع والازدهار، وما قدمه الحاج أبو بكر إمام من أعمال أدبية قصصية، ووجوه تأثيره بالتراث العربي الإسلامي، في استخدام نماذج عربية إسلامية وآلياتها ورموزها للتعبير عن رؤية مشابهة، وتارة مخالفة، للدلالة على وحدة النفس والفكر الإنسانيين بين الفنون الأدبية.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد،

فمنذ فجر الإسلام تشرفت الأراضي الأفريقية بنور الدين الحنيف حيث كانت أرض الهجرة الأولى للرعيل الأول من المسلمين، وأتم الله هذا النور بيد الصحابي الجليل عقبة بن نافع، حيث اتخذ مدينة القيروان مركزاً لانطلاق دعوته إلى الإسلام^١، وانتشر نور الإسلام ومعه جميع مبادئه وثقافته، وكان انطلاقه فطرياً حيث فتح القلوب قبل الأبواب، وصار يؤثر في العادات والتقاليد والثقافات ويتأثر به معتنقوه سلوكاً وأخلاقاً، مما أدى إلى تغيير جذري في العباد والبلاد، وكان لزاماً على كل مسلم أن يتعلم؛ إذ التعليم فريضة إسلامية، وبالعلم أثر الإسلام في حضارة الأمم.

وبانتشار الإسلام في المناطق الأفريقية قامت العلاقات التجارية، وصارت اللغة العربية لغة المساومة والتخاطب، "وأصبحت بعض هذه المراكز التجارية مركزاً أيضاً للتعليم والثقافة العربية والإسلامية، وكونت صلة وثيقة بمراكز التعليم الرئيسية في العالم الإسلامي منذ القرن الخامس الميلادي.. ومن القرن الرابع عشر وجدت عوامل ساعدت في نشر التعليم الإسلامي والعربي، منها زيارة الوفود والأفراد لبعض ممالك الهوسا^٢.."

فأهمية هذا البحث تكمن في دراسة التأثير والتأثير للحبل السري بين الثقافة العربية الإسلامية والهوسا، وتنظر في الأعمال الأدبية وفي القصة المكتوبة خاصة، وتقف على أعمال الحاج أبي بكر إمام بصفة أخص لتضرب المثال بها، وتحلل نماذجها، وتعتمد في ذلك على المنهج التحليلي، ومحاورها كما يلي:

- مدخل في تعريف القصة وبيان جذورها عند الهوسا.
- بذور الثقافة العربية والإسلامية في أدب الهوسا
- شخصية الحاج أبي بكر إمام، حياته وثقافته.
- غرر أعماله الأدبية.
- أصول الثقافة العربية والإسلامية في أعماله القصصية.
- خاتمة.
- الهوامش.

مدخل:

تعريف القصة لغة: كلمة ثلاثية من "ق/ ص /ص، قَصَّ: قصصت، يَقْصُ، أَقْصُصُ، قَصًّا، فهو قاص. والمفعول مقصوص... قَصَّ القصة على أصدقائه، حكاها، رواها لهم، أخبرهم بها. "قص عليه الرؤيا: أخبره بها {نحن نقص عليك أحسن القصص} قص: أثر فلان: راقبه، تتبع أثره {وقالت لأخته قصيه} ^٣

وفي الاصطلاح: "هي في الأدب، فن من الفنون الأدبية يقوم على سرد حادثة أو مجموعة من الحوادث مستمدة من الواقع أو من الخيال أو منهما معًا، تبنى على قواعد معينة من الفن الكتابي، والقواعد الجمالية." ^٣ يمكن من خلال هذا التعريف الوجيز أن نفهم أن القصة قديمة قدم الإنسان وتاريخه؛ إذ تعد من طرائق التعبير عن الأحاسيس والمشاعر. والإنسان بالطبع يميل إلى سرد حكايات جرت معه أو لحادثة من الحوادث أو أسطورة من الأساطير نثرًا أو شعرًا. ولأهمية القصة فقد وردت في القرآن الكريم قصص الأنبياء مع قومهم، وهي بخلاف القصص الإنساني، لخلوها تمامًا من الخيال والخرافات، وتمتاز بخاصية أنها أحسن القصص ^٦. فالقصة موروثة الشعوب والقبائل بشقيها الشعبي والرسمي (الشفاهي والكتابي)، وترجع بداية ظهور القصة في أدب الهوسا الشعبي إلى حديث السمر الذي يلقيه المسنُّ على الصغار تحت ضوء القمر، فيختلق الأحاديث من عنده أو يحكي لهم ما سمعه من غيره بهدف تسلية المستمعين، وقضاء وقت فراغهم، وتزويدهم

بخبيرته وتجاربه من خلال القصة. وهذا كان قبل ظهور وسائل الإعلام مثل التلفاز والمذياع والصحف والجرائد، والجدير بالذكر هو أن الدور الذي لعبه حديث الليل في قديم الزمان للربط بين أفراد الأسرة وانقياد صغارها لكبارها لا يستهان به؛ لذا تعد وفاة شيخ أو عجوز في قبيلة وفاةً لمكتبة كاملة. ومن أغرب ما توارثته الهوسا من القصص الشعبي هو ما تلقته أفواه الناس عن راهب كبير يسمى "Barbushe" وكان مما يروى أنه رجل عملاق ضخم، كانت له صومعة فوق تل في "Dala" وفيها شجرة تعبد، تدعى "Tsumburbura"^٧ وهي في غابة كثيفة حولها سور عال، وكان يقضي حولاً كاملاً يتعبد في هذه الغابة ولا يخرج منها إلا مرة في السنة ليبلغ عن هذا الصنم ويخبر الناس بما سيحدث في قادم أيامهم، ويطالبهم بقربان السنة وهو ثور خاص مشوي كامل غير مجزأ، فيقتحمه ويدخل به في الغابة إلى العام المقبل. وهذه القصة من أساطير الأولين عند الهوسا قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام لجأوا إلى المصادر الدينية من مرويات كعب الأبحار التي غالباً ما تعتمد على الإسرائيليات، ومن أعجب ما يروى من أخبار الأمم السابقة، أن أقلهم سنناً من عاش خمسمائة سنة، وأن أحدهم لفرط طوله يصيد البحر وتبلغ يده عمقه ليخرج منها السمك، ثم يرفعها في السماء وتبلغ يده موضع الشمس ليشويه ثم يأكله. وهذا ما كان في الأدب الشعبي عند الهوسا من قصص قبل انتشار الكتابة.

وترجع بداية القصة الحديثة إلى أواسط القرن العشرين، حين اشتدت الحاجة إلى الدراسات والبحث والتأليف،^٨ وكانت القصة في المرحلة الأولى خليطاً بالحكاية، وأكثرها قصيرة ولم تبلغ حد الرواية، ويعد الحاج محمد بللو كاجارا^٩ أول من كتب قصة الهوسا الحديثة بعنوان "Gandoki" يعني المغامر، إبان إنشاء دار "Gaskiya" سنة ١٩٣٤م، يصور فيها المقاومة والاشتباكات التي دارت رحاها بين المواطنين النيجيريين والمستعمرين أيام الاحتلال البريطاني وما تابعها من الهزيمة النكراء التي حلت بالمواطنين أمام الأسلحة الحديثة. وكتب تافيدا وساسا قصة "Jiki Magayi" وهي قصة غرامية، تصور عادة الشعوب الأفريقية القديمة في السباق والتنافس؛ لكسب قلب الفتاة الجميلة، وإظهار البراعة والخوارق بين المتنافسين، وما ينتشر فيها من تعاطي السحرة والشعوذة.

وأصدق صورة للقصة الحديثة يمكن أن تسمى الرواية هي قصة "مأساة العبيد" للحاج أبي بكر تفاوا بليوا، أول رئيس للوزراء في نيجيريا، تدور أحداث القصة حول تجارة العبيد أيام الاحتلال الإنجليزي في نيجيريا، وما أصاب المواطنين من سوء الأحوال، وبطل القصة هو "shehu umar" الذي ابتلي بالفراق بينه وبين أمه ووقوعه في براثن الرق سنيئاً، وتخرج أمه هائمة في الأرض

تبحث عن ابنها وتموت بُعِيدَ لقائهما. وفي القصة تصوير لما يلقاه العبيد من ألوان العذاب والقتل بغير ما اكتسبوا، وقد يجيء المخاض لإحدى النساء فتضع وترمي طفلها ثم تتابع سيرها وهكذا؛^{١٠} وهذه القصص كلها أتت نتيجة لمسابقة نظمتها لجنة هيئة التأليف "Hukumar Talifi" عام ١٩٣٠م، بإشراف المستشرق روبات إيست، وكان الغرض إيجاد الكتب الهوسوية الحديثة، وقد شارك فيها ذوو المواهب في الكتابة، وفاز بالجوائز خمسة منهم، وتم طبعها فيما بعد وهي:

١- Gandoki لبييلو كاجارا.

٢- Sehu Umar لأبي بكر تفاوا بليوا.

٣- Jiki Magayi لتافيدا وساسا.

٤- Ruwan Bagaja لأبي بكر إمام.

٥- Idon Matmbayi لمحمد جوارزو.

و يلاحظ أن هذه القصص يغلب عليها طابع تقليدي وأسطوري، وأن أكثرها قصة قصيرة. الفرع الأول: تأثر أدب الهوسا بالثقافة العربية:

سبق أن ذكرنا أن العرب تجّارهم ودُعّاتهم قصدوا بلاد الهوسا ببضاعتهم، ومن جملة ما فيها التراث الثقافي؛ مما فتح المجال لتسرب كثير من مفردات اللغة العربية إلى الهوسا وأُشْرِبَتْ أكثرُ ألفاظ الهوسا بألفاظ العربية، وساعد حفظ القرآن وتعلمه في توسع مفرداتها، واستخدم الحرف العربي في اللغات المحلية، وانكب الناس على تعلّم قراءة الكتب الدينية المكتوبة بالعربية، يدرسونها ويترجمونها إلى اللغات المحلية، وبدأت المحاكاة لتلك الكتب الدينية عن طريق كتابة الشروح والحواشي، ثم بدأ التأليف.^{١١} .. فتكونت طبقة من المثقفين الذين اطلعوا على الكتب الدينية العربية وعانوا ترجمة بعضها إلى لغاتهم.^{١٢} وقد تعدى هذا التأثير الثقافي العربي إلى الأدب الهوسوي، وجرى استعمال بعض الأسماء والألقاب للشخصيات التاريخية العربية مثل "عنتر بن شداد" ويُسَبَّه به كلُّ شجاع، "واتخذ المشرق العربي مسرحًا للأحداث القصصية والنظر إليه على أنه مصدر للعلم، وكذلك بداية القصص بداية دينية، بالإضافة إلى طريقة كتابة الرسائل"^{١٣}.

الفرع الثاني: الحاج أبو بكر إمام، حياته وثقافته.

كانت ولادة الحاج أبي بكر إمام بكاجرا "Kagara" سنة ١٩١١م في إحدى الولايات الشمالية في نيجيريا وتسمى نيجر، ووالده الشيخ عثمان بن محمد بدماصي، وجده غاجبو، وأصلهم من "ديكوا" قرية في مملكة برنو القديمة نزحوا منها إلى كاجرا.^{١٤} وكان والده فقيهاً وإماماً ومدرساً وقاضياً

مبجلاً، فنشأ أبو بكر في كنف أبيه، هو وأخوه محمد بللو، وقد نهل من معين علم والده، فحفظ القرآن ودرس مبادئ العلوم الدينية واللغوية، ثم أدخله أبوه المدرسة الحكومية في "كاتسنا"، فتعلم فيها اللغة الإنكليزية والثقافة الأوربية،^{١٥} ولجمعه بين الثقافتين الشرقية والغربية، خلا له الجو في أن يفيد العالم بلا حدود، فتولى التدريس بعد تخرجه من الكلية سنوات عدّة، وفي أثنائها كان يعمل في ديوان أمير كاتسنا، يترجم له الرسائل من الهوسا إلى الإنكليزية أو إلى العربية والعكس^{١٦} ثم تولى مناصب كثيرة، ففي سنة ١٩٣٠م تأسس مكتب الترجمة في مدينة "زاريا" فلما تولاه "روبرت إيست" اختار الحاج أبا بكر إمام ليعمل معه، فاشترك في وضع أسس كتابة لغة الهوسا بالحرف اللاتيني بعد تقويم قواعد كتابتها، متخذاً لهجة "كانو" أساساً بعد إدخال التعديلات عليها.^{١٧}

ولم يقتصر نشاطه على التدريس وعملية الترجمة فقط، بل كان محرراً صحافياً لصحيفة "Gaskiya" وهي صحيفة أسبوعية بلغة الهوسا، وذلك بين سنة ١٩٣٩م وسنة ١٩٤٩م. وشارك في السياسة أيضاً، حيث كان رائداً للحركة الوطنية في شمال نيجيريا، وانتخب ليمثل إقليمه للمرة الأولى في مجلس النواب في شمال نيجيريا بكادنا، وفي المرة الثانية انتخب عضواً في المجلس الوطني بلاجوس العاصمة السابقة للحكومة النيجيرية.

وأما عن ثقافته فكان يتمتع بموهبة عالية، ومعرفة واسعة، وكان متضلّعاً بالثقافتين الشرقية والغربية، إلا أنه كان إلى الشرق أميل، ولم يكن يخفي ذلك بل يعتز به، "ففي اجتماع لاتحاد طلاب غرب أفريقيا في لندن، وجّه حديثه إلى الجنوبيين الذين كانوا ينافسون الشماليين بثقافتهم الغربية قائلاً: إن كلاً منا يحتقر الآخر، ويصفه بالجهل، فالجنوبي فخور بثقافته الغربية، ونحن فخورون بثقافتنا الشرقية."^{١٨}

الفرع الثالث: أعماله الأدبية.

بالرغم من أن الحاج أبا بكر إمام شارك في كثير من النشاطات، مثل الإدارة والصحافة والسياسة، إلا أن أكبر ما قام به في حياته وخلفه، هو مؤلفاته المتنوعة، فقد كتب الحاج أبو بكر كتباً في موضوعات مختلفة وفي أشكال متباينة، منها الموسوعات مثل كتابه "Ikou Allah" (عجائب خلق الله) وهو في العلوم الكونية، والإنسانية، والحيوانات، والنباتات، والطب، والكيمياء، وغيرها؛ ويقع هذا الكتاب في خمسة أجزاء وهو عمل مشترك بينه وبين "Dr. East".

والمطولات مثل التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية، Tarihin Annabi Muhmmadu، Sayyadina Abubakar, Tarihin Musulunci. (سيرة النبي، وتاريخ أبي بكر، وتاريخ

الإسلام)، والمختصرات مثل كتاباته الدينية: Tambayoyi Goma Amsa Goma, Hajji Mabudin Ilmi.

(عشرة أسئلة وعشر إجابات، والحج مفتاح العلم). وفي المعاملات "Auren Turawa" (الزواج بالأوروبيين)، و Auren Zobe (زواج الخاتم) وفي اللغة الهوسوية Karamin Sani Kukumi (نصف العلم ضرر).

وأما مؤلفاته في أدب الهوسا وتاريخه، فهي: "Hausa Bakwai" (ولايات الهوسا السبع) و"Bagaja" Ruwan " (الماء الشافي)، وهي قصة تأثر في بعضها بالهمذاني (ت ٣٩٨ هـ) وبالحريري (ت ٥١٦ هـ) في مقاماتيهما، وبابن شهيد الأندلسي (ت ٤٢٦ هـ) في التوابع والزوابع، في رحلة مع جني إلى أرض الجن، وخلاصة هذه القصة الخيالية هي أن الكاتب الحاج أبو بكر إمام - بطل القصة - عارض بها رجلا اسمه "koje sarkin labaa" (كوجي القصاص) لشهرته في قول القصص، فالأخير يحترف ويتكسب بإلقائها على السوقة والعامة وحتى على الملوك والوجهاء استجداء وتزلفاً، ويتظاهر بالمس والجنون، ينتقل من مدينة إلى أخرى، وكان الحاج أبو بكر إمام قد سمع به من دون أن يراه، وذات يوم ساق القدر هذا القصاص إلى مدينة "kwantagora" إحدى مدن بلاد السودان،^{١٩} فنزل على ملك المدينة، وأخذ يلقي إليه من غرائب ما لديه من الأخبار وعجائبها ليل نهار دون هوادة، والملك يجزل له العطاء هو وأقباله؛ فخرج ذات يوم يجول في المدينة، حتى إذا أتى على عمارة مشيدة، شاهقة مرممة، سأل من بها لمن هذه العمارة؟ فأجابوه: ومن في هذه الدنيا لا يعرف الحاج أبو بكر إمام؟! وسألهم متى يكون في المجلس؟ قالوا: عند الظهيرة، وانتظر إلى أن انتصف النهار، فسمعوا ضربة نعلٍ وقالوا ها هو قادم، ولما جاء واتكأ على عريكته قال من هذا الغريب؟ فقال أنا كوجي القصاص، وقد كنت في المدينة منذ عشرة أيام حيث نزلت عند الملك وجنتك اليوم لأسمعك ما عندي من غرائب الأخبار، وقال له إن كنت قصاصاً فقد لاقيت من هو أحسن وأعلم منك بالقصة، فهات ما عندك، وبدأ القصاص يسترسل في الحديث إلى أن بلغ حد الثلاثين قصة فقال: أجزني على هذه الثلاثين قبل أن أوافيك ببقية ما عندي من القصص، فقال له الحاج أبو بكر بل أكمل ما عندك، فواصل القصاص إلى قبيل الغروب، وقد أفرغ جميع ما عنده من الأخبار؛ فقال هذا مبلغ ما عندي من الأخبار، فقال الحاج أبو بكر إمام: كل ما عندك من الأخبار لا يتجاوز ما بين الظهر والمغرب، أما أنا فسأخبرك غداً مما عندي من الأخبار والقصص ما لا تقل مدته عن عشرة أيام، ولما جاء الموعد في الغد، حضر القصاص المجلس ومعه

آخرون، وأخذ الحاج أبو بكر إمام يحدثهم عن سيرته الذاتية وعن منشئه ومولده، وسبب خروجه مغامراً في سبيل البحث عن الماء الشافي، مما أدى إلى رحلته إلى عالم الجن، وما رأى هناك من العجائب والغرائب، ومغامراته في الحياة زهاء خمسة عشر عاماً إلى أن عاد سالماً غانماً، ورفع ذلك قدره اليوم وصار من ملأ القوم.^{٢٠}

و"Magana Jari ce" (الكلام رأس المال ٣ أجزاء)، وهي قصص قصيرة تأثر فيها بألف ليلة وليلة وكلييلة ودمنة، تدور القصة الأولى في الجزء الأول حول أمير اسمه عبد الرحمن وهو يعيش في بلاد المشرق (بلاد العرب)، وكان ذا مال وجاه، غير أنه لم يرزق بمولود ذكر يرثه ويكون الأمير من بعده، وخاف الموالي من ورائه، وكان له وزيرٌ يطمع في الملك ويتمنى له الموت ليصير له الحكم والأمر؛ إذ ليس للأمير سوى ابنة لن ترثه أبداً؛ ويمكر ويمكر الله والله خير الماكرين. رأى أحد علماء البلد في المنام أن الأمير لو جمع أربعين من العلماء يدعون الله في أربعين يوماً سيرزقه بسلام يتولى الإمارة من بعده، فنفذ الأمير الأمر، وهكذا كان بأمر الله، فقد حملت امرأته ثم وضعت وسمى الغلام موسى، ولما بلغ خرج مع الأمير إلى المستنقع، وهناك رأى موسى ببغاء جميلاً فأعجب به وألح على والده أن يشتريه له، ولكن صاحب الببغاء طلب ثمناً باهظاً وأبى إلا أن يبيعه بمائة جنيه، وتخرج الأمير، وقال كان ينبغي أن يكون ثمنه أقل من ذلك، فرد عليه الببغاء قائلاً: إن مثلي لا يشتري بأقل من مائة جنيه، فقال الأمير ولم؟ فقال الببغاء لا لجمال جسمي وفصاحة لساني فحسب، بل لشمائلي ومواهبي، وقد علمني سيدي علم التنجيم إلى جانب علم الطب، والقصص بأنواعها عن الجن وأخبار الصعاليك والملوك ومماليكهم، لئن وفقت بشرائي فكأنك اشتريت كتاب "ألف ليلة وليلة" أو الكتب الأوربية التي تتحدث عن الرحلات والتاريخ، فقال الأمير دعك من الهذيان والترثرة التي لا طائفة وراءها فلا أشتريك!، قال الببغاء: لا تزدريني وثرثرتي "فالكلام رأس المال" ولما سمع الولد أن الببغاء يجيد رواية القصص، صار مشدوداً إليه وأصر على رغبته فيه، وألح على والده لشرائه، وقف الأمير مذهولاً ومندهشاً لما يبدو من بيان الببغاء الفصيح، وصار لزاماً أن يختبره ليعرف أصدق أم كان من الكاذبين، فقال: إن كان ما تدعيه صحيحاً فقل لي كم عمر غلامي هذا الآن؟ فنظر إليه الببغاء نظرة وقال: بلغ اليوم في عمره أربعة عشر عاماً وخمسة أشهر وثلاثة أيام، قال الأمير لعله عرف عمره من الناس لأن شأن الغلام لا يخفى على أحد من الناس، ثم طرح عليه سؤالاً آخر قائلاً: في أي يوم ولد؟ قال الببغاء كانت ولادته في وقت العصر يوم الجمعة^{٢١}... . كان الببغاء يقص على الغلام قصصاً على لسان الحيوان ليسليه عن غياب أبيه،

ويصوغ الكاتب في الجزء الأول من الكتاب أنواعًا من القصص على لسان الحيوان والطيور والوحوش وغيرها. وله أيضًا كتاب "Tafiya Mabudin Ilimi" (السفر مفتاح العلم) ألفه بعد عودته من رحلته إلى الدول الأوربية عن طريق البحر، وأودع فيه تجاربه أثناء مكوثه فيها، وما شاهده ذهبًا وإيابًا، ويعد الكتاب من أول الكتب في أدب الرحلات بلغة الهوسا.

الفرع الرابع: أصول الثقافة الإسلامية في أعماله القصصية.

هذا النوع من القصة الحديثة لم يعرفه أدب الهوسا قبل الاحتلال البريطاني، ولا يمكن كذلك أن يقال إنه نشأ صدفة أو وجد من فراغ، ولا بد أنه انتقل إلى أدب الهوسا الحديث بانتقال الأجناس الأدبية في أفكارها وأشكالها وأساليبها الفنية، من حضارة إلى حضارة، ليدل على عالميتها رغم خصوصيتها المحلية والقومية، ومسالك التواصل بين الفنون والمعارف، ويبين أن عالمية هذه الأجناس الأدبية وثيقة الصلة بوحدة النفس والفكر الإنسانيين. ومن البديهة أن تمر قصة الهوسا الحديثة بمراحل أخذت نصيبها من الإعجاب بالأدب الناضج - عادة كل أدب ناشئ- فالمحاكاة والتقليد ثم في الأخير اتخذت سبيلها إلى الإبداع سرّياً.

ومما أثبتته المراجع أنه لما اختار "روبرت إيست" الحاج أبا بكر إمام ليعمل معه في مكتبة الأدب في مدينة زاريا، وضع بين يديه مجموعة من كتب الأدب الشرقي والغربي ليقتبس منها أو ينسج على منوالها^{٢٢} فانتزع إلى الشرقي العربي الإسلامي، فاستخدم نماذجها وآلياتها ورموزها للتعبير عن رؤية مشابهة ومخالفة تارة؛ والأطر المشابهة أو المخالفة تعد دائماً الحبل السري بين الآداب العالمية، والعنصر الأقوى لمعرفة المؤثر من المتأثر، والأصل من الملحق. والحكم هنا في أعمال الحاج أبي بكر إمام لم يتغير، وهي في جملتها وتفصيلها متأثرة وملحقة بالثقافة العربية الإسلامية، سواء في قصة "الماء الشافي"، أم أقصوصة "الكلام رأس المال"، نراه في الأولى قد أفرغها في شكلين عربيين، أولهما يضاهاى فن المقامات في الأدب العربي، ومدار القصة في البداية في مغامرات يقوم بها بطل واحد، تنتهي في معظمها إلى جواز حيلة البطل على الناس، وبلوغه ما يطمع فيه من تكسب.

وإلى جانب البطل الواحد في كل هذه المغامرات تقف شخصية خيالية معارضة ومتحدية (مالم زكي) ينازعه ويواجهه المواقف كلها، وهو مثل الراوي الذي ينقل الأخبار في المقامات.

وفي أثناء العرض تبدو ألوان من الطرافة والطرب والنقد الاجتماعي والأحاجي والألغاز والحكم والأمثال وما إلى ذلك من فنون القول، على غرار ما في المقامات.

ويتصف البطل بالدهاء والبراعة الأدبية، ويتخذ سرعة البديهة وبراعته في الفكر والأدب سبباً إلى بلوغ غايته ومخرجاً من مشكلته؛ وهنا تشترك هذه القصة مع المقامات.

وفي شكل آخر، كانت القصة متأثرة بالتوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي في "رحلته إلى أرض الجن ليقابل الشعراء والكتاب العرب ممن سبقوه، يجري المجارات والمناظرات الأدبية على لسان توابعهم فينزع إعجاباً بعد أن يسمعهم أمثلة من أشعاره".^{٢٣}

فالحاج أبو بكر لم يذهب في رحلته إلى أرض الجن ليقابل الشعراء والكتاب، مثل ابن شهيد الأندلسي، بل ليأتي بالماء الشافي، وقد حلف ألا تكتحل عينه بنوم حتى يجده، فداء لنفس مربيه وزوج والدته من نكال الأمير الذي كان ابنه يتصارع مع المرض الذي عجز الأطباء أن يداووه منه، وقد أشرف على الموت ولا يستطب إلا بالماء الشافي؛ فانطلق الحاج أبو بكر إلى بلاد "إرم" - أرض الجن - وركب في السفينة حتى إذا كانوا في وسط البحر جاءهم الموج من كل مكان، فغرق كل من في السفينة وهلكوا إلا هو، فألقاه الموج بجزيرة جدباء، ليس فيها شجر ولا مدر، وأوشك أن ينتحر من شدة الجوع والتعب ولكنه لم يفعل، وبينما هو كذلك آنس من البعد شبحاً، فتوارى بالتراب فلا يرى إلا رأسه، وكان الشبح لنفرين من الجن يحملان رجلاً من الإنس، فنزلوا بقربه لكن لم يحسوا به، وسمعهما يقولان: "افتح بحرمة سليمان بن داوود" فانفتح باب على وجه الأرض، ودخلوا منه ولبث ملياً ثم خرج الجنان دون الإنسان، وقالوا: أغلق بحرمة سليمان بن داوود، فانغلق الباب وتحلقا في الجو وغادرا المكان، ثم خرج من شبه القبر الذي هو فيه وتقدم إلى موضع الباب وقال: "افتح بحرمة سليمان بن داوود فانفتح الباب وسرعان ما دخل انغلق الباب، وجاء الرجل الذي جاء به الجنان يطلب منه أن يخلصه، فسأله الحاج من هو وما حاجته؟ فتبين للحاج أن الرجل هو الملك الذي قتل أباه وأزواج أبيه بعد أن تكهن له علماء أنه سيولد ولد من المقتول يكون سبباً لهلاكه وذهاب ملكه؛ فجيء به ليقبض منه بعد أن تعدى على بني الجن وقتل ابن ملك الجن، ولكن الحاج رأى أن الحظ فرصة، فأخذ سيفاً معلقاً على طائفة من الجدار، فضربه به لينتقم منه لوالده وأمها، فقتله فإذا بجن يتمثل له، ففزع منه، قال له الجن: لا تخف أنا الموكل بحماية السيف الذي بيدك وقد أحسنت في قتل الرجل المجرم، وكان جزاء وفاقاً.

وقال له الحاج كيف تساعدني بالماء الشافي؟ فقال له الجن هذا ليس في وسعي، فأمره إلى ملك الجن فتعال بنا إليه، ولما أتيا ملك الجن جثا الحاج على ركبتيه وقال أرجوك يا ملك الجن في قدر من الماء الشافي، وقص عليه قصته من الألف إلى الياء، فقال الملك لا مانع لك من الماء الشافي

وقد قتلت عدوي وانتقمت من قاتل ولدي، لكن الوقت الآن مساء، ولا يسمح لك بالدخول إلى الغار، فخذ راحتك إلى غد ثم بادر إليه؛ ولما كان في الغد تأهب الرجل للسفر إلى غار الماء الشافي، وكان على بعد فراسخ وكان يقع فوق جبل، فقال له ملك الجن اسمع نصيحتي فإنك بأرض الجن وستجد المكتوب على باب المدخل "لا تسأل" وترى الأمور على خلاف ما هي في عالم الإنس فلا تسأل عن علتها، وامض لشأنك، والزم قول "يفعل في خلقه ما يشاء، تعالى الله وجل الحكم"، وفي داخل الغار اثنا عشر بابا، تدخل من الباب السادس ترى هناك بئراً لها طبق من فضة ودلو من ذهب وغارب، لو أجمع العالم كله أن يفتحوها لا تنفتح إلا بهذه الكلمات: "افتحي بحق سليمان بن داوود... افتحي بحق أشرف الخلق والمرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم"، ويكفيك قليل من مائها فلا تستكثر فتتعب من حمله. ودعه الملك وأخذ الحاج السبيل إلى الغار، وفي الطريق مر ببقرة تحلب صاحبها ودجاجة تزرع، ورجل مرضع، وشاة تناطح الذئب، وفرخ يحمل النسر... ولما وصل الغار أخطأ فدخل من الباب الخامس دون أن يشعر فهاجمته مردة الجن بالضرب؛ فخر الحاج صعقاً، وألقوه في الخارج وقد كسرت رجله اليسرى، ولما أفاق قام وارتد على آثاره عند ملك الجن، وقضى عنده عشرين يوماً ليندمل جرحه، وينجر كره، ثم أعاد الكرة. وفي هذه المرة حاول أن يتجنب أي خطأ، وأخذ درسه مما مضى، وسار على بركات الله حتى وصل البئر، ولما فتحها وأخذ من مائها، سمع هواتف للتهاني والتبشير ودق الطبول، وكان أول بشر من الإنس وفق بورود هذا الماء، رجع أخيراً إلى بلده بالماء الشافي، واستقبله الأمير بكل حفاوة، وأتوا المريض وأشرب من الماء فشفي من مرضه حالاً وصار كأن لم يمسه الضر من قبل.

يمكن القول بأن الأصل في هذين الشكلين يرجع إلى التراث العربي الإسلامي، فقد أقر القرآن بوجود الجن وأنهم خلقوا من نار السموم، وأنهم يرون الإنسان من حيث لا يراهم، وأن منهم الصالحين ومنهم دون ذلك، وقد حضروا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا القرآن، وثبت في حديث ابن مسعود أنه شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن، وفي تفسير القرطبي لآية "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..." البقرة، بيان مفصل عن الجن. وهذا كله يؤكد أهمية هذه القصة ومميزاتها الأدبية.

أما القصة الثانية "الكلام رأس المال" فهي حكايات تروى على لسان الحيوان، أخرجها على الأنماط القصصية التي عرفت في آداب العالم، ومن بينها الأدب العربي، ومن مميزاتها أن الحيوان هو الذي يلعب دور البطولة فيها^{٢٤}، وهي عند الحاج قصص الحيوان الرمزية، أشبه بحكايات كليلة ودمنة في

بعضها، وفي بعضها الآخر هي مثل ألف ليلة وليلة؛ حيث يقوم الغلام بدور "شهريار" ويقوم البيغاء بدور "شهرزاد" في رواية القصة.

خاتمة :

حاولنا في هذا البحث إبراز أهم ملامح أصول الثقافة الإسلامية في أدب الهوسا والمحطات التي مرّ بها، متخذين من أعمال الحاج أبي بكر إمام القصصية أنموذجاً، فقد وجد البحث أن ظاهرة تأثر أدب الهوسا بالثقافة الإسلامية بدأت بتوغل الإسلام إلى أفريقيا عن طريق التجار المسلمين والدعاة المصلحين، فنشروا التعاليم الإسلامية في ربوع البلاد، وأسسوا المراكز وفتحو المدارس، وبيّن البحث كذلك أن ظهور القصة في بلاد الهوسا بدأ من حديث الليل الذي كان المسنون يلقونه على الناشئين في مجالس السمر تحت ضوء القمر، أما القصة الحديثة فقد ظهرت في أواسط القرن العشرين، صاحب ذلك حركة في الدراسات والبحث والتأليف، وترجمة الكتب من اللغات الأوربية والعربية إلى لغة الهوسا، وقد شجعت المسابقة التي أجرتها لجنة التأليف في زاريا همّة الكتاب، وأوجدت للمرة الأولى القصة الحديثة في بلاد الهوسا، وجاء أكثرها في شكل القصة القصيرة، وقليل منها يتصف بشكل القصة الطويلة أو الرواية.

وتعرض البحث لقضية التأثير والتأثير بين الثقافة الإسلامية وقصة الهوسا، وأن مردهما إلى انتقال الأجناس الأدبية والفنية من حضارة إلى حضارة، وأنه دليل واضح على عالميتها رغم خصوصيتها المحلية والقومية، وبيّن أن قصة الهوسا قد مرت بمراحل أخذت نصيبها من الإعجاب بالأدب الناضج، فالمحاكاة والتقليد، ثم الإبداع والازدهار، ومن أبرز روادها الحاج أبو بكر إمام، في كتبه " Magana jar ice و ruwan bagaja " التي تأثر فيها بالتراث العربي الإسلامي، واستخدم نماذج وآلياته ورموزه للتعبير عن رؤية مشابهة أحيانا ومخالفة أحيانا أخرى؛ ليؤكد أن عالمية هذه الأجناس وثيقة الصلة بوحدة النفس والفكر الإنسانيين.

الهوامش:

- ١- انظر، الألوري، آدم عبد الله. الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، (د-م) ١٩٧١م، ط٣، ص١٨ و١٩.
- ٢- السيد، مصطفى حجازي. (٢٠٠٠م) أدب الهوسا الإسلامي، المملكة العربية السعودية وزارة التعليم العالي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحوث العلمية، ص، ٣١-٣٢.
- ٣- عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٨م، ط١، ص١٨٢٣، ج١.
- ٤- يعقوب، أميل وآخرون. قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، عربي- إنكليزي- فرنسي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، ط١، ص٣١٧.
- ٥- انظر، التنوحي، محمد. المعجم المفصل في الأدب، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م، ط٣، ص٧٠٧.
- ٦- انظر، جنيد، جمال محمود سيد أحمد. حاضر الأدب الإسلامي: مفهومه وقضاياها، القاهرة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية فرع البنات، (د-ت)، (د-ط)، ص٧٤.

- ٧- انظر، غلادنتي، شيخو أحمد سعيد. حركة اللغة العربية وآدابها فب نيجيريا، (د-م) المكتبة الأفريقية، ١٩٩٣م، ط٢، ص٣٩.
- ٨- انظر، السيد، مصطفى حجازي، أدب الهوسا.. المرجع السابق، ص ١٠٢.
- ٩- وهو أخ شقيق لمترجمنا الحاج أبي بكر إمام.
- ١٠- انظر المرجع نفسه، ص ١٠٣-١٠٤.
- ١١- انظر، غلادنتي. حركة اللغة.. المرجع السابق، ص٦٢.
- ١٢- سلوم، داوود. من آفاق الأدب المقارن، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٨م، ط١، ص٢٦٥.
- ١٣- السيد، مصطفى حجازي. أدب الهوسا... المرجع السابق، ص٦٦.
- ١٤- انظر، كنم، حسن إدريس. دراسة مقارنة بين الجاحظ وأبي بكر إمام، (د-م)، ٢٠٠٩م، ط٣، ص٧٧.
- ١٥- انظر، كنم، حسن. المرجع نفسه، ص ٧٧.
- ١٦- انظر، كنم، حسن. المرجع نفسه، ص٧٨.
- ١٧- السيد، مصطفى حجازي، أدب الهوسا، المرجع السابق، ص ١١٥.
- ١٨- السيد، مصطفى حجازي. أدب الهوسا، المرجع السابق، ص ١١٥.
- ١٩- اسم أطلق على بلدان جنوب الصحراء قديما قبل الاحتلال.
- ٢٠- انظر، Imam, Abubakar Alhaji. Ruwan Bagaja, The Nothern Nigeria Publishing Company Lmt, ١٩٩٤. pg١,٢,٣.
- ٢١- انظر. Imam, Alhaji Abubaka. Magana Jari Ce ,Northern Nigeria Publishing Company Ltd, Zaria, eight edition, ٢٠٠٧, p ١-١٣.
- ٢٢- انظر، السيد مصطفى حجازي، أدب الهوسا.. المرجع السابق، ص ١٢٧.
- ٢٣- بهجت، منجد مصطفى، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ، الأردن، دار الياقوت، ٢٠٠٦م، ط٣، ص ٢١٨-٢١٩.
- ٢٤- انظر، النجل، محمد رجب. النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية: فنونه- مدارس- أعلامه. بيروت، دار الكتاب الجامعي، ط١، ١٩٩٧م، ص ٢٥٥.

Abstract

This study investigates the transformation of literary and aesthetic genres from one civilization to another in a global scheme despite their local and national peculiarity; examines the stages through which the story of Hausa underwent—from the naivety of admiration, tradition and imitation to creativity and prosperity. In addition, this study is concerned with the literary works produced by al-Haj Abu Bakr on short stories and how this oeuvre has been influenced by the Arabic-Islamic heritage; first in terms of the usage of Arabic-Islamic models; second in terms of the usage of mechanisms and symbols of that heritage so as to express a similar vision and sometimes contradictory. This, as a matter of fact, suggests that there is a unity of human emotion and thought, in the realm of literary arts